محاضرات مطولة في النقد الأدبي القديم

السنة الأولى. السداسي الثاني

المجموعة الثانية الأفواج: 8،7،6،5

أ.د العلمي لراوي 2022/04/03

<u>1- النقد الانطباعي مفهومه ومجالاته ونماذج من نصوصه في:</u>

أ. الحجاز

ب. في الشام والعراق

<u>2- مفهوم الشعر عن النقاد المشارقة والمغاربة</u>

- قضية الانتحال عند النقاد
- قضية لفحولة عند النقاد
- قضية اللفظ والمعنى عند ابن قتيبة
- قضية الصدق

<u>ملاحظة</u>: النماذج النصية يرجى العودة الى المصنفات الاتية

1. الشعر والشعراء - عبد الله ابن مسلم بن قتيبة.
2. طبقات فحول الشعراء - محمد بن سلام الجمحي.
3. الموشح - محمد بن عمران بن موسى المرزباني
4. دلائل الاعجاز- عبد القاهر الجرجاني
5. البديع - عبد الله ابن المعتز.
6. فحولة الشعراء - الأصمعي.
7. منهاج البلغاء سراج الأدباء - حازم القرطجني.
8. العمدة في صناعة الشعر ونقده - ابن رشيق المسيلي
9. الممتع - عبد الكريم النهشلي.

أ.د. العلمي لراوي

أستاذ بكلية الآداب واللغات جامعة أم البواقي

إن الإسلام قد تعامل مع الأدب بوصفه سلوكا وممارسة، وعلى ضوء هذا التصنيف يتم تقويم الأدب والحكم عليه، ونحن نعلم أن أي سلوك لابد أن يهدف إلى تحقيق غاية معينة وبناء على هذه الغاية يحدد الإسلام علاقته مع الأدب. فالإسلام لم يحظر الشعر ولم يقف دونه ولكن سبحانه وتعالى نزه كلامه عن أن يكون شعرا ورفع رسوله من أن يكون شاعرا، كما نجد القرآن قد ميز بين شعر وشعر وشاعر وآخر، وهذا في الآية التالية: ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون مالا يفعلون. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات. وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا (1). فالاستثناء الوارد في هذه الآية قد شمل الشعراء المؤمنين، وبذلك وضع الأساس الأول للممارسة الشعر وهو الإيمان بالله سبحانه وتعالى، ثم الالتزام بخدمة مبادئ العقيدة الإسلامية. وقد كان موقف الرسول ﷺ متماشيا مع القرآن الكريم. فالشعر الجيد لديه هو ذلك الذي يوافق الحق ويبتعد عن الباطل. فقد أرجع جمال الشعر إلى جمال موضوعه، وهذا يكمل مقصد الآية القرآنية التي تعرضت للشعر،قال ﷺ:

(لشعر كلام من كلام العرب جزل تتكلم به في بواديها وتسل به الضغائن من بينها)(2)

وكذلك قال: (إنما الشعر كلام فمن الكلام خبيث وطيب) (3).

فالرسول ﷺ لم يكن يعارض الشعر كفكرة مجردة أو كسلوك يمارسه الشاعر. فهذا السلوك لم يكن محل معارضة أبدا بل أشاد بالجانب الفني وتأثر له وإنما يصادف معارضة إذا جانب الحق ودعا إلى الباطل والشر. فالمعيار الذي يستند عليه الرسول ﷺ هو مدى خدمة الشعر للحق والخير إلى جانب قيمته الفنية. وعلى هذا النهج سار خلفاء الرسول ﷺ في تقييمهم للشعر وتذوقهم له والحكم عليه، ومن الخلفاء الراشدين الذين أسهموا في النقد إسهاما كبيرا الخليفة عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ فقد مكنه إعجابه بالشعر وتذوقه له وحفظه لكثير منه من الإدلاء بآراء نقدية ذات أهمية كبيرة. فقد قال عنه ابن سلام الجمحي: (لا يكاد يعرض له عارض إلا أنشد فيه بيتا من الشعر) (4)، كما أشاد به ابن رشيق القيرواني فقال: (وكان من أنقد أهل زمانه للشعر وأنقدهم فيه معرفة)(5).

ومن أحكامه النقدية ما يلي: قال عمر مرة لابن عباس: (ألا تنشدني لشاعر الشعراء.

فقلت: يا أمير المؤمنين، ومن شاعر الشعراء ؟

قال: زهير فقلت: لم صيرته شاعر الشعراء؟

قال: لأنه لا يعاظل بين الكلامين، ولا يتبع وحشي الكلام ولا تمدح أحدا بغير ما فيه)(6

فهذا الحكم يقوم على جانبين:

جانب أسلوبي: يتمثل في قوله: (لأنه لا يعاظل بين الكلامين. ولا يتبع وحشي الكلام) ويعني بوحشي الكلام لألفاظ الغريبة الوحشية والتي إذا وردت في الكلام أفسدته وأفقدته طابع المهولة. فكأن عمر يريد أن يضع مقياسا فنيا في تقديم الشعر يتمثل في مراعاة الصياغة في الشعر.

أما الجانب الثاني في الحكم: فينصب على الصدق في التعبير الذي يتمثل في قوله (ولا يمدح أحدا بغير ما فيه ويعني بهذا التزام جانب الموضوعية في وصف الأمور والابتعاد عن الإسراف والمبالغة في تصوير الأشياء. إذ يعد ذلك ضربا من ضروب الكذب والنفاق والرياء الذي يتعارض مع مبادئ العقيدة الإسلامية التي يحرص عمر على المحافظة عليها. وقد امتد هذا الاتجاه في عهد بني أمية، ولكن ليس بالحدة نفسها التي كان عليها في عصر صدر الإسلام، نظرا للتطور الذي عرفته الخلافة في السياسة والحكم، فلم يعد من أنصار الاتجاه الأخلاقي إلا بعض الفقهاء والشيوخ الذين أبت عليهم نزعتهم الدينية إلا أن يقفوا في وجه التيارات الغزلية التي غزت الحجاز آنئذ واستجاب لها الشباب. فقد أدركوا خطر هذا الشعر فمنعوه ووقفوا ضده، والنص التالي يبين ذلك. قالت ظبية مولاة فاطمة بنت عمر بن مصعب:(مررت بجدك عبد الله بن مصعب وأنا داخلة منزله وهو بفنائه ومعي دفتر.

فقال: ما هذا معك؟ ودعاني فجئته

فقلت: شعر عمر بن أبي ربيعة.

فقال: ويحك أتدخلين على النساء بشعر عمر بن أبي ربيعة، إن لشعره لموقعا من القلوب، ومدخلا لطيفا لو كان شعر يسحر لكان هو، فارجعي به.

قالت ففعلت)(7).

فالتأثير السئ الذي يتركه شعر عمر في سلوك الشباب هو الذي حدا بمصعب أن يقف منه هذا الموقف ويمنعه من دخول البيت، وقول عبد الله بن مصعب (إن لشعره لموقعا من القلوب ومدخلا لطيفا) تقدير واضح واعتراف صريح بقوة معانيه وشدة أسرها للنفوس، فالنزعة الأخلاقية هي التي تقف وراء هذا الحكم وقد ضحت بالجانب الفني عندما وقع الانتقاء بين الجمال أو الفن والأخلاق فكانت الأخلاق أولى بالمقدمة فهذا الحكم خلفيته الثقافية هي الشريعة الإسلامية، وهذا الحكم يذكرنا بأحكام الرسول والخلفاء الذين لم يترددوا في رفض هذا النوع من الشعر والمعاقبة عليه. وغير بعيد عن هذا الحكم حكم هشام بن عروة الذي يقول: (لا ترووا فتياتكم شعر عمر بن بي ربيعة لئلا يتورطن في الزنا تورطا وأنشد)(8)

لقد أرسلت جاريتي وقلت لها خذي حذرك

وقولي في ملاطفـــــة   لزينب نولي عمـــــرك

كما أن حكم ابن جريج يندرج في السياق نفسه الذي سارت فيه الأحكام السابقة، إذ يقول معلقا على شعر عمر بن أبي ربيعة: (ما دخل على العواتق في حجالهن شيء أضر عليهم من شعر عمر بـــن أبي ربيعـــة)(9)، هـــذه الأحكام جميعها تركز على مضمون الشعر وتفترض فيه أن يكون مضمونا ملتزما بالحق والفضيلة مهما كان الشكل الذي يعبر به عن هذا المضمون، أما إذا كان مضمون الشعر بعيدا عن القيم السمحة ويسخر للحديث عن الغرائـــز ويذكيها في نفوس السامعين كتلك التي تكلم عنها عمر في أبياته، فهذا ليس من الأخلاق في شيء، وهذه دعـوة إلى الانحلال الذي حاربه الإسلام.

وبجانب هذا التيار المحافظ يقوم تيار آخر ولكنه يقف موقف المعجب بالشعر الجميل بصـرف النظـر عـن مضمونه إدراكا منه أن المعصية تنسب للشعر وليس للشاعر.و هذا اتفاقا من الآية الكريمة: ﴿ وأنهم يقولون مـا لا يفعلون ﴾. ولذلك رأى أصحاب هذا التيار أن الشاعر لا يحاسب على شعره أخلاقيا، إذ ليس بالضرورة أن يفعـل ما يقوله فالشاعر فنان وعاشق للجمال يتغنى به وعلينا أن نتمتع بهذا الجمال في غير حرج.

وخير من يمثل هذا التيار الفقيه "ابن عابس فقد كان يتذوق الشعر ويعجب به مهما كان موضوعه إذ كـان ينشد الشعر ثم يدخل في الصلاة ليدلل أن الأدب لا يدخل في العقيدة ولا يؤثر فيها. ونسجل في هــذا السـاق مناظرة بين ابن عباس ونافع الأزرق حول فلسفة استحسان الشعر. فقد كان في المسجد الحرام وعنده نـافع الأزرق وناس من الخوارج يسألونه، إذ أقبل عمر بن أبي ربيعة حتى دخل وجلس. فأقبل عليه ابن عبـاس فقـال أنشـدنا فأنشده:

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر   غداة غد أم رائح فمهجر

حتى أتى على آخرها، فأقبل عليه ــ نافع بن الأزرق ــ فقال: الله يا ابن عباس، إنا نضرب إليك أكباد الإبل من أقاصي البلاد نسألك عن الحلال والحرام فتتثاقل عنا، ويأتيك غلام من مترفي قريش فينشدك

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت   فيخزى وأما بالعشى فيخسر

فقال ليس هكذا قال:

فقال: رأيت رجلا أما إذا الشمس عارضت   فيضحي وأما بالعشي فيحضر

فقال: ما أراك إلا وقد حفظت البيت ؟

قال: أجل، وإن شئت أن أنشدك القصيدة أنشدتك إياها

قال: فإني أشاء.

أنشده القصيدة حتى أتى على آخرها(10)

في هذه المناظرة نلاحظ الانفصال الذي تم بين الأخلاق والشعر، والذي سيتطور فيما بعد ويصبح الفن بمعزل عن الأخلاق. في ضوء ما تقدم نلاحظ أن النزعة الأخلاقية في الشعر يتجاذبها تياران أحدهما يرذل الشعر الماجن ويحذر منه وهذا مستمد من المعيار السابق، أحسن الشعرما وافق الحق وما لم يوافق فلا خير فيه، وتيار يعجب بما يتضمن الشعر من جمال وفن وقد استمد مفهومه من الآية القرآنية السابقة الذكر، وفي هذا الإطار يندرج قول عبد الله بن أبي عتيق، فقد قال عن شعر عمر بن أبي ربيعة: (الشعر عمر بن أبي ربيعة نوطة في القلب، وعلوق بالنفس ودرك للحاجة ليست لشعر، وما عصي الله، جل وعز، بشعر أكثر مما عصي بشعر ابن أبي ربيعة، فخذ عني ما أصف لك: أشعر قريش من دق معناه ولطف مدخله وسهل مخرجه ومتن حشوه وتعطفت حواشيه وأنارت معانيه وأعرب عن حاجته) (11).

انطلق صاحب الحكم من ملاحظة التجربة العاطفية التي يصدر عنها عمر، كما تعرض إلى القوالب الفنية التي تحمل التجربة، فبدأ بالحديث عن القيم العاطفية (لشعر عمر لوطة في القلب، وعلوق بالنفس ودرك للحاجة). يرمي من وراء هذه الألفاظ إلى الكشف عن العاطفة الإنسانية التي تشيع في شعر عمر، فهي عاطفة ذاتية غيرية، فكأنه يشير إلى القدرة الفائقة التي يتمتع بها عمر في تحس مشاعره والتعبير عنها بصدق وأمانة حينئذ يجد المتلقي في هذا التعبير تعبيرا عن حاجته النفسية التي كان يشعر بها ولا يستطيع الإفصاح عنها، وبذلك نمضت تجربته الخاصة فارتقت إلى التجربة الإنسانية العامة التي يجد فيها كل إنسان تعبيرا عن حاجته النفسية.

وبعد هذا انتقل الحكم إلى القيم الفنية المتمثلة في دقة المعنى وإنارة المعاني التي يقصد بها طريقة عمر في تناول مشاعره والتعبير عنها في صدق وبأسلوب بسيط من غير التواء وتعقيد، ومرد هذا إلى بساطة تجربته ووضوحها في نفسه، فينقلها في عبارات واضحة التعبير بسيطة التركيب شديدة الإيحاء قريبة الفهم، وبعبارة موجزة نقول إن دقة المعنى تعني دقة المشاعر وإنارة المعنى تعني وضوح أسلوب الكشف عنها. أما فيما يخص لطف المدخل وسهولة المخرج فإنها تعني براعة الاستهلال وحسن الاختتام. كما وجدنا أحكاما نقدية لشعراء من ذلك ما قاله كُثَيِّر لعمر بن أبي ربيعة: (يا عمر والله لقد قلت فأحسنت في كثير من شعرك، ولكنك تخطئ الطريق، تشب بها ثم تدعها وتشب بنفسك أخبرني عن قولك:

قالت لترب لها تحدثها   لتفسدن الطواف في عمر
قومي تصدي له ليبصرنا   ثم اغمزيه يا أخت في خفر
قالت لها غمزته فأبى   ثم اسبطرت تشتد في أثري

أردت أن تنسب بها فنسبت بنفسك، أهكذا يقال للمرأة إنما توصف بالخفر وأنها مطلوبة ممتنة)(12)

هذه المقاضاة الشعرية تبين بكل وضوح فلسفة كل شاعر واتجاهه الشعري فيما لاشك فيه ان عمر قد حاول ان يتحرر من القيم المعتوية والفنية التقليدية، ويصف واقعا جديدا يحسه ويعيشه، حاول أن ينزع نزوعا طبيعا نحو الصدق في تصوير الحياة التي تغيرت قيمها أو مفاهيمها، ولكن كُثيِّرا وقف ضد هذا الجديد وحكم عليه بالفساد على أساس أنه خالف العرف المألوف. فعمر قد صور واقعا معينا يعكس تغير وضع المرأة في المجتمع وتحررها من القيود بسبب شيوع الحرية الاجتماعية التي أعطت لها ما لم يكن متاحا لها من قبل بينما نجد كُثيِّرا قد تأثر ببيئته العراق بسبب انخراطه في السياسة ومشايعته للعلويين، ونتيجة تأثر كُثيِّر بهذه الفلسفة التقليدية في النقد أنكر على عمر أن يقلب الأوضاع ويصور المرأة طالبة لا مطلوبة.

وتتضح الصورة أكثر عندما نقرأ حكم عمر علي كُثيِّر، فقال له: أخبرني عن تخيرك لنفسك لمن تحب حين تقول

لا ليتنا يا عز من غير ريبة بعيران نرعى في الخلاء ونعزب

كلانا به عر فمن يرنا على حسنها جرباء تعدى وأجرب

إذا ما وردنا منهلا صاح أهله علينا فما ننفك نرمي ونضرب

نكون بعيري ذي غنى فيضعنا فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب

فقد تمنيت لها ولنفسك الرق والجرب والرمي والصرد والمسخ فأي مكروه لم تتمن لها ولنفسك؟ لقد اصابها منك قول القائل (معاداة عاقل خير من مودة أحمق) (13)، فعمر ينكر على كثير هذه الاستعارات التي ركبها للتعبير عن أمله في العيش مع عزة، فهذا تعبير عن نزعة ذوقية تقليدية جاهلية لم تعد مستساغة، وكأن عمر يصدر في ذوقه هذا عن المقياس الذي حدده – ابن أبي عتيق – حين طالب الشعراء التزام الصدق في التعبير عن المشاعر والانفعالات كما تحيا في وجدان الإنسان وليس كما هي في الأعراف والتقاليد. ومن هذا يظهر لنا أن الرؤية النقدية إلى الشعر الغزلي قد تناعها تياران. تيار يرى في التزام الشعراء بمعطيات الواقع الجديد دليل انعتاق عن الموروث القديم، إذ لم يعد الشاعر تابعا بمشاعره وعواطفه إلى العصر الجاهلي إلى عصر لم يعشه، وما ينجر عن ذلك من زيف في التصوير وتصنع في التعبير، بل عليه أن يتفاعل مع مستجدات حاضرة ومعطيات عصره. أما التيار الثاني يقبل على الشعر الغزلي الجديد ويعجب به ولكنه يرى أن مضمونه لا يتفق والأعراف الفنية المألوفة، ولعل مرجع ذلك أن أصحاب هذا التيار من أهل البادية التي هي أكثر ثباتا وأقل تطورا وقبولا للأنماط الحضارية الجديدة.

وقد امتدت هذه الحركة النقدية إلى الشام والعراق، فراح نقادها ينزعون نزعة تقليدية في أحكامهم على الحركة الأدبية التي سادت في عصرهم، ويرجع سبب هذا التمسك بالتقاليد الفنية الجاهلية إلى عدة أسباب منها: ان العراق قد توفر على قدر ضخم من الشعر الجاهلي الذي أسهم الرواة في جمعه من البوادي العربية، ومن أفواه

الأعراب الوافدين إليهم في الكوفة والبصرة، فأقبل على هذا الموروث الشعري كل من الشعراء والنقاد يقلبون فيه النظر. فأعجبوا بلغته، وأنماط تصويره وموضوعاته وطريقة تناوله للحياة بصفة عامة. ولعل الشاعر هو أول من تأثر بهذا القديم وراح ينسج على منواله دون أن يبيح لنفسه حرية الخروج من هذه الدائرة المغلقة. لأنه لو صادف أن خرج أحدهم لعزف النقاد عن شعره. وبهذا أصبح الشعراء يتبارون في انتقاء الألفاظ الوعرة والصور الغريبة ليبرزوا مدى تمكنهم من تناول القديم وحسن إجادته (فكان بين أيدي شعراء العراق منه ثروة هائلة أغرقتهم وسدت عليهم منافذ الإبتكار وحصرتهم في حيز التقليد للمجموع تقليدا وقف بهم أول الأمر عند المفردات اللغوية والصور الغريبة منه، حتى صح القول عندهم بأن من لم يقرأ شعر جرير والفرزدق لم يعرف اللغة العربية أو شعرها. ذلك أن جريرا وصحبه من شعراء العراق كانوا نسخة مكررة من الشعر الجاهلي وإن انحطت عنه في المستوى)(14).

كما يعود سبب التمسك بالقديم إلى الحياة الاجتماعية والسياسية التي كان يحيا في وسطها الشعراء والنقاد. فقد كانت تعج بالاضطرابات السياسية والاجتماعية، فكان من نتائج الاضطرابات السياسية أن واجه الخلفاء أعداء أقوياء مناوئين لحكمهم فاحتاجوا إلى من يدافع عنهم بالكلمة ويشيد بمآثرهم ويتغنى بسجاياهم، ويقف ضد أعدائهم. فوفد إليهم الشعراء من مختلف الأقاليم المفتوحة وتحولت قصورهم إلى ساحات أدبية يتبارى فيها الشعراء في مدح الخلفاء يدفعهم في ذلك طمع نيل الجوائز الثمينة والمكافآت الكبيرة، ومن الطبيعي أن يتدخل النقد ليحدد الشعر الجيد الذي يأخذ صاحبه الجائزة.

أما ما نتج عن الاضطرابات الاجتماعية واستفحال التناحر بين القبائل فقد جعل الشعراء يفتخرون بقبائلهم ويهجون هجاء لاذعا خصوم قبائلهم وعشائرهم.

وبهذا نلاحظ أنه كان للحياة الاجتماعية والسياسية نصيب كبير في إحياء موضوعات الشعر وأغراضه التقليدية والرجوع بها إلى العهد السالف.

أما الحديث عن أصحاب النقد فسوف نقصره على بعض من شهد لهم العصر بباع نقدي طويل، دون الرجوع إلى الملاحظات الجزئية المشتتة التي كانت تنطلق من كل لسان وتذهب كل مذهب. ولذلك لا مناص من الاكتفاء بالأحكام الكلية التي قد تتيح لنا استنتاج دلالات نقدية معينة.

1 ــ المجالس النقدية

لقد نالت قصور الخلفاء الامويين اهتمام الشعراء والنقاد بسبب حب الخلفاء للشعر. فقد كانت تقام في قصورهم مجالس أدبية يقف فيها الشعراء بين أيدي الخليفة ليلقوا مدائحهم وأعضاء المجلس يستمعون، وبعد فراغهم

من الإلقاء يحدد مجلس الخليفة المتفوق من الشعراء، أو قد يكون الخليفة نفسه هو الذي يصدر الحكم، وبذلك ارتبط مصير الشعر والشعراء بالقصر (فمجد الشاعر مرتهن بالوصول إلى باب الأمير. ومكانته الفنية يحددها القصر، وحظوته برضا الأمير مضمونة ما قصر وجدانه على تأييده والتغني بسجاياه)(15).

وكان عبد الملك بن مروان من أكثر الخلفاء اهتماما بالشعر ونقده من ذلك ما أورده المرزباني:

قال (أنشد كثير عبد الملك* مدحته التي يقول فيها:

على ابن أبي العاص دلاص حصينة أجاد المسدى سردها وأذالها

يؤود ضعيف القوم حمل قتيرها ويستضلع القوم الأشم احتمالها

فقال له عبد الملك: قول الأعشى لقيس بن معدي كرب أحب إلي من قولك إذ تقول:

وقال ابن أبي خيثمة في حديثه: ألا قلت كما قال الأعشى:

وإذا تجيء كتيبة ملمومة خرساء يخشى الذائدون نهالها

كنت المقدم غير لابس جنة بالسيف تضرب معلما أبطالها

فقال: يا أمير المؤمنين، وصف الأعشى صاحبه بالطيش والخرق والتغرير ووصفتك بالحزم والعزم فأرضاه)(16).

أول ما نسجله حول هذا الحكم هو اتكاء صاحبه على النمط الجاهلي في قياس معاني الشعراء، وهذا يدل على ارتباط ذوق صاحب الحكم بالذوق الجاهلي ومما يؤكد هذا ما عرف من حب عبد الملك لشعر الأعشى، وتفضيله على سائر الشعراء، فقد قال لمؤدب أولاده:

(أدبهم برواية شعر الأعشى فإن لكلامه عذوبة ــ قاتله الله ــ ما كان أعذب بحره وأصلب صخره فمن زعم أن أحدا من الشعراء أشعر من الأعشى فليس يعرف الشعر)(17).

أما المعيار الذي وازن به عبد الملك بين صورة كثير والأعشى فهو المبالغة في تناول الأمور وتصويرها، وإن لم يشير إلي ذلك عبد الملك فقد علق المرزباني مبينا سبب هذا التفضيل بقوله: (رأيت أهل العلم بالشعر يفضلون قول الأعشى في هذا المعنى على قول كثير. لأن المبالغة أحسن عندهم من الاقتصار على الأمر الأوسط. والأعشى بالغ في وصف الشجاعة حتى جعل الشجاع شديد الإقدام بغير جنة، على أنه وإن كان لبس الجنة أولى بالحزم وأحق بالصواب، ففي وصف الأعشى دليل قوي على شدة شجاعة صاحبه، لأن الصواب له، ولا لغيره إلا لبس الجنة وقول كثير يقصر عن الوصف)(18).

والحقيقة أن تفضيل عبد الملك كان صحيحا لما في بيتي الأعشى من تصوير وحركة على عكس ما قاله كثير الذي هو من قبيل الوصف السطحي الساكن.

ومن أحكام عبد الملك بن مروان التي ن مقياس المبالغة يو ما يلي

(أنشد كثير عزة بن مروان قوله

فما رجعوها عنوة عن مودة ولكن بحد المشرفي استقالها

فقال للأخطل كيف تسمع: قال: هجاك يا أمير المؤمنين.

قال: بل حمدته.

فقال الأخطل: ما قلت لك يا أمير المؤمنين أحسن من هذا حيث أقول:

أهلوا من الشهر الحرم فأصبحوا موالي ملك لا طريف ولا غصب

فجعلته لك حقا وجعلك اغتصبته (19).

فنزعة المبالغة واضحة في استحسان عبد الملك لبيت كثير عزة إذ جعل المجد لا ينال إلا بحد السيف كما كانت تمدح الشعراء في العصر الجاهلي أبطالها فتجعلهم لا ينالون العز إلا على رؤوس الرماح. وهذا ليس بغريب على الخليفة عبد الملك فمكانته كحاكم تستوجب المدح بمثل هذه الصفات حتى ترتفع قيمته وتضخم صورته بين أفراد المجتمع وبناء على هذا كانت صورة كثير أحب إلى نفس عبد الملك من الصورة التي رسمها له الأخطل وهي صورة تتضمن قيما إسلامية.

– وغير بعيد عن حكمه هذا ما قاله لعبيد الله بن قيس الرقيات عندما أنشده مادحا إياه بالأبيات التالية:

إن الأغر الذي أبوه أبو العاص عليه الوقار والحجب

يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

فقال له عبد الملك يا ابن قيس تمدحني بالتاج كأني من العجم وتقول في مصعب بن الزبير

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

ملكه ملك عزة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء(20)

فقد اقتصر مدح عبد الله بن قيس الرقيات للخليفة على تصوير المظهر الخارجي المتمثل في ملك يعلو رأسه تاج ذهبي. وهذا ما لم يعتاده الخلفاء بحيث يرغبون أن يعكف الشعراء على إظهار الصفات المعنوية التي تناسب الخليفة العادل. والتاج لا يوحي بالعدل والسماحة بل يدل على الاستبداد والطغيان. ولعل مرجع نفور الخليفة من هذا التصوير هو أنه لا ينطبق مع النمط القديم في المدح، فالمقياس الذي اعتمده عبد الملك في تقييم هذه المعاني الواردة في مدح عبد الله بن قيس الرقيات هو معاني المدح القديمة التي تركز على إبراز الفضائل التي يمتاز فيها على غيره وتجسيدها في رموز الواقع العربي المألوف، وهذا ما لم يحدث في مدح عبد الله بن قيس الرقيات

من هذا المثال الذي اخترناه لعبد الملك نلاحظ أن أحكامه قد اقتصرت على موضوع الشـــعر ولم تتعـد إلى ملاحظات أسلوبية أو لغوية، وربما كان الموضوع هو الذي يهمه كخليفة لانه يلبي عنده نزعة غرور الملك.

وبالإضافة إلى أحكامه على المدح نجد له بعض الأحكام التي انصبت على بعض الأغراض الأخرى كـــالغزل مثلا، فقد دخل الشاعر الأقيشر على عبد الملك، وعنده قوم فتذكروا الشعر وذكروا قول نصيب بن رباح:

أهيم بدعد مـــا حييت فإن أمت   فيا ويح دعد من يهيم بها بعدي؟

فقال الأقيشر: والله لقد أساء قائل هذا الشعر

قال عبد الملك: فكيف كنت تقول لو كنت قائله ؟

قال كنت أقول:

تحكم نفـــي حياتي فإن أمت   أوكل بدعد من يهيم بها بعدي

قال عبد المالك: والله لأنت أسوأ قولا منه حين توكل بها

فقال الأقيشر: فكيف كنت تقول يا أمير المؤمنين ؟

قال كنت أقول:

تحبكم نفسي حيـــاتي فإن أمـــت   فلا صلحت دعد لذي خلة بعدي

فقال القوم جميعا: أنت والله يا أمير المؤمنين أشعر القوم(21).

فواضح هنا أن الحكم قد انصب على مدى انسجام معاني الشعر مع الواقع المعيش دون أن يعير أدنى اهتمـــام لعاطفة الشاعر وإحساسه وما يعتريهما من أهواء، قد تقلب المعاني وتهدم منطق الأمور، فبيت نصـــيب فيـــه مـــن الشاعرية ما يخلو منه البيتان الآخران ومع ذلك فقد تعرض بيت نصيب لهذا الحكم التعسفي من لدن عبد الملـــك ومن كان في مجلسه.

والمقياس السابق نفسه هو الذي حكم بوساطته على كثير عزة فقد قال عبد الملك بن مروان: لو قال كثـــير عزة بيته:

فقلت لها يا عز كل مصيبـــة   إذا وُطّنت يوما لها النفس ذلت

في حرب لكان أشعر الناس. ولو أن القطامي قال بيته لذي وصف فيه مشية الإبل قوله:

يمشين رهوا فلا الأعجاز خاذلة   ولا الصدور على الأعجاز تتكل

في النساء لكان أشعر الناس(22).

ومن أحكام عبد املك النقدية التي اتصلت بالشعر،   ا الحكم على قصيدو الراعي النميري التي من أبياتها

خليفة الرحمن إنا معشر   حنفاء نسجد بكرة وأصيلا

عرب نرى لله في أموالنا حق الزكاة منزلا تنزيـــلا

فقال عبد الملك: ليس هذا شعرا، هذا شرح إسلام وقراءة آية.(23)

فهذا الإلتماس الذي قدمه الراعي لعبد الملك لم يلب فيه نزعة الحاكم القوي كما ألفا ذلك عند الشعراء القدماء كالنابغة عندما اعتذر للنعمان ولهذا لم يكترث عبد الملك لأبيات الراعي، لأنه كان يبحث عن معاني أقوى وأضخم من الذي سمعه.

كانت هذه النماذج من الأحكام النقدية التي كانت تدور في قصور الخلفاء وقد كان عبد الملك بن مروان وقد اقتصرنا على عدد قليل من أحكامه كنماذج تكشف عن الاتجاه العام للنقد في هذه المجالس.

وقد كانت السمات العامة لهذه الأحكام تشبه إلى حد بعيد أحكام العصر الجاهلي، إذ لم تبرأ من الجزئية والانفعالية والارتجالية والذوقية ونود أن نسجل هنا ملاحظة على غاية من الأهمية حول الذوق، وهي أن تذوق الشعر لم يكن قد تحرر بعد من الذوق الجاهلي، فإذا كنا وجدنا أصحاب التيار النقدي الجديد أصبحوا يصدرون أحكامهم النقدية عن ذوق متطور مستمد من واقعهم الجديد، فإن ذوق هؤلاء التقليدي يرجع بأصوله إلى العصر الجاهلي، وهذا نظرا لتشبعهم بالموروث الجاهلي وانتصارهم له.

كما أن المقاييس التي استندوا عليها في الحكم على الشعر نفسها التي كانت سائدة في الاتجاه الذوقي.

2 ـ النقاد الشعراء:

لا تكاد تختلف أحكام الشعراء عن الأحكام السابقة التي استعرضناها وهذا يرجع لسطوة القديم على هؤلاء، فأقبل الشعراء يتدارسونه ويتمثلونه في جميع أقوالهم، واتخذوا منه نموذجا فنيا لكل عملية شعرية سواء في المعاني أو الأغراض أو التقاليد الفنية بصفة عامة. وبهذا أصبحوا في جميع أشعارهم محاكين للقديم وإن كانوا قد قصروا عنه في أغلب الأحيان.

فإذا كان الشعراء الأوائل قد طرقوا جميع الأغراض الشعرية، فإن هؤلاء قد استقر في أذهانهم أن طرق جميع الأغراض من مدح وهجاء وفخر وغزل.. . دليل نبوغ شعري، وبهذا نهض عندهم هذا المعيار في قياس شاعرية الشاعر، فقد كانوا يقيسون شاعرية الشاعر بمدى قدرته على طرق جميع الأغراض. وبذلك أحطوا من منزلة شعراء الحجاز الذين قصروا شعرهم على الغزل.

(فقد أتى عمر بن أبي ربيعة الفرزدق فأنشده من شعره، وقال: كيف ترى شعري ؟

قال: أرى شعرا حجازيا إن أنجد اقشعر.

فقال له: حسدتني

فقال يا ابن أخي. علام أحسدك؟ أنا والله أعظم منك فخرا وأحسن منك شعرا وأعلى منك ذكرا...)(24).

فالفرزدق يرى أن شاعرية عمر بن أبي ربيعة قاصرة لأنه لم يستطع طرق جميع اغراض الشعر ولا سيما غرض الفخر. كما انه يرى أن لغته لا ترقى إلى درجة الفحول لأن معنى الشاعر الفحل مقترن بمدى توظيفه للغة قوية وتراكيب رصينة، وهذا ما أومأ إليه بقوله: "أرى شعرا حجازيا إن أنجد اقشعر".

ولعل ما يؤكد لنا أكثر أن مقياس شاعرية الشاعر مرتبط بمدى طرقه لجميع أغراض الشعر. تصريح البطين عندما سئل عن ذي الرمة أكان ذو الرمة شاعرا متقدما ؟

قال البطين: أجمع العلماء بالشعر على أن الشعر وضع على أربعة أركان: مدح رافع أو هجاء واضع أو تشبيه مصيب. أو فخر سامق، وهذا كله مجموع في جرير والفرزدق والأخطل، فأما ذو الرمة فما أحسن قط أن يمدح ولا أحسن أن يهجو. ولا أحسن أن يفخر. يقع في هذا كله دونا. وإنما يحسن التشبيه، فهو ربع شاعر.

والمعيار نفسه يصدر عنه جرير عندما سأله عبد الملك من أشعر الناس ؟

فقال جرير: (ابن العشرين. قال فما رأيك في بني أبي سلمى؟ قال: كان شعرهما نيرا يا أمير المؤمنين. قال: فما تقول في امرىء القيس؟ قال: اتخذ الخبيث الشعر نعلين. وأقسم بالله لو أدركته لرفعت دلالته. قال: فما تقول في ذي الرمة؟ قال: قدر من ظريف الشعر وغريبه وحسنه على ما لم يقدر عليه أحد. قال: فما تقول في الأخطل؟ قال: ما خرج لسان ابن النصرانية ما في صدره من الشعر حتى مات. قال فما تقول في الفرزدق؟

قال: في يده والله يا أمير المؤمنين نبعة من الشعر قد قبض عليها. قال: فما أراك أبقيت لنفسك شيئا. قال: بلى والله يا أمير المؤمنين إني لمدينة الشعر التي منها يخرج وإليها يعود نسبت فأطربت وهجوت فأرديت. ومدحت فسنيت وأرملت فأغزرت، ورجزت فأبحرت فأنا قلت ضروب الشعر كلها، وكل واحد منهم قال نوعا منها. قال صدقت).(25)

وفي حديث آخر له مع ابنه عن درجات الشعراء، قال عكرمة بن جرير قلت لأبي: يا أبت من أشعر الناس؟

فقال: الجاهلية تريد أم الإسلام؟ قلت: أخبرني عن الجاهلية

قال: شاعر الجاهلية زهير.

قلت: فالإسلام؟

قال: نبعة الشعر الفرزدق.

قلت: فالأخطل؟

قال: يجيد صفة الملوك ويصيب نعت الخمر.

قلت: فما تركت لنفسك؟

قال: دعني فإنني نحرت الشعر نحرا)(26)

انطلاقا من هذه الأحكام يبدو لنا جليا ان مقياس الشاعرية في عرف هؤلاء الشعراء لنقاد هو القول في جميع الأغراض الشعرية، وكما نعلم فإن جميع الشعراء الذين انصبت عليهم الأحكام السابقة قد طرقوا جميع الأغراض ومع ذلك تعرضوا لهذا الحكم، وبذلك يكون المقصود ليس مجرد القول فقط في أغراض مختلفة إنما المقصود هو الإجادة في جميع فنون القول الشعرية ذلك ما ذهب إليه جرير وغيره في أحكامه السابقة.

كما نجد ضمن أحكام الشعراء النقاد أحكاما يؤكدون فيها أن أغراض معينة فيجعلون منها مقياسا أساسيا في تقدم الشاعر على غيره. وهذان الغرضان الأساسان هما الهجاء والمدح.

ولعل مرد تمسك الشعراء بهذين الغرضين ليس فقط أنهما من الأغراض التقليدية المحببة قديما في العصر الجاهلي ولكن لهذين الغرضين علاقة بالحياة الاجتماعية والسياسية الجديدة التي يحياها الشعراء أنفسهم، فقد ظهرت مرة ثانية النزعات والشقاقات بين القبائل بعد أن قضى عليها الإسلام، فهذه النزعة القبلية التي أحييت في هذا العصر دفعت بالشعراء إلى أخذ الريادة في هذه المواجهات القبلية للدفاع عن القبلية ورفع شأنها والحط من منزلة القبلية المعادية لها، ومن هنا جاء الدور الخطير الذي يؤديه الهجاء وبحكم هذه الوظيفة التي يؤديها الهجاء أُتُخذ منه مقياسا مهما تحدد بوساطته منزلة الشاعر.

أما غرض المدح فهو مرتبط بقيمة الشاعر.ولهذا كان الشاعر المجيد والذي يشاع ذكره وتسمو منزلته من أسرف في إطراء الخلفاء والأمراء وذوي الجاه والمال. فينال رضاهم وعطاياهم إذن هذه هي البواعث الأساسية التي حدت بالشعراء النقاد إلى أن يتخذوا من الهجاء والمدح مقياسا أساسا لقياس شاعرية الشاعر وإحلاله منزلة أولى بين شعراء عصره.

ومما يؤكد لنا خطر غرض الهجاء وسطوته على المجتمع العربي هذه القصة التي أوردها صاحب الأغاني.

(أن الفرزدق قدم المدينة في سنة مجدبة فمشى أهل المدينة إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

فقالوا له: أيها الأمير إن الفرزدق قدم مدينتنا هذه في هذه السنة الجدبة التي قد أهلكت عامة الأموال التي لأهل المدينة، وليس عند أحد منهم ما يعطيه شاعرا، فلو أن الأمير بعث إليه فأرضاه، وتقدم إليه ألا يعرض لأحد بمدح ولا هجاء، فبعث إليه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فقال:

يا فرزدق إنك قدمت مدينتنا هذه في هذه السنة الجدبة، وليس عند أحد ما يعطيه شاعرا، وقد أمرت لك بأربعة آلاف درهم، فخذها ولا تعرض لأحد بمدح ولا هجاء فأخذها الفرزدق) (27). فهذا إن دل على شيء فإنما يدل على فعالية الهجاء وارتعاش الناس منه، ومن هنا كان الشعراء يعتدون بمن أوتي ملكة الهجاء وهذا ما أشار إليه الفرزدق:عندما قال له ذو الرمة: (مالي لا ألحق بكم معاشر الفحول؟ فقال له: لتجافيك عن المدح والهجاء واقتصارك على الرسوم والديار") (28).

خصائص الحكم النقدي

ومن هنا يمكن أن نجمل خصائص الأدب في ضوء النقد الإسلامي فيما يلي:

إن الأحكام النقدية التي انطلقت من السنة جميع الطوائف ــ شعراء ــ لغويون ــ نحاة ــ رواة ــ أو تلك التي دارت في المجالس النقدية ــ تمتد بجذورها إلى أعماق العصر الجاهلي، ذلك أن أصحاب هذه الآراء لأسباب عديدة ظلت أذواقهم جاهلية وترتب عن ذلك أن اتخذوا من المقاييس الجاهلية معيارا لجودة الشعر في عصرهم.

فمعيار المبالغة في تناول الأمور هو الذي امتد في هذا العصر ومنه انطلق كثير من النقاد في تقييم الشعر والحكم عليه من ذلك حكم الخليفة عبد الملك بن مروان على بيتي "كثير" فقد اتهمه الخليفة بالتقصير في الوصف وفضل عليه قول الأعشى:

وإذا تجيء كتيبة ملمومة ... خرساء يخشى الذئدون منها لها

كنت المقدم غير لابس جنة ... بالسيوف تضرب معلما أبطالها(31)

فنزعة المبالغة هي التي تقف وراء تفضيل الخليفة لبيتي الأعشى وهي كما نعلم نزعة جاهلية.

وكذلك معيار المثالية وهو توخي النموذج الأمثل في كل صياغة شعرية. فقد كان أساس كثير من الأحكام من ذلك حكم الأصمعي حين سمع قول كعب بن زهير في وصف ناقته.

ضخم مقلدها فعم مقيدها

قال: هذا خطأ إنما توصف النجائب بدقة المذبح.(32)

وكذلك اعتراضه على وصف أبي ذؤيب ــ لفرسه بأنها لينة اللحم في قوله:

قصر الصبوح لها فشرج لحمها ... بالني فهي تثوخ فيها الأصبع.(33)

فقال: هذا من أخبث ما نعتت به الخيل ــ والصواب أن توصف بصلابة اللحم.

كما كانت لغة الشعر الجاهلي مرجعا لقياس تفوق الشاعر كما حدث مع الوليد بن عبد الملك وذي الرمة، فقد قال له الوليد:

(ويحك أنت أشعر الناس؟

فقال: لا ولكن غلاما من بني عقيل يقال له مزاحم بسكن الروضات يقول وحشيا من الشعر لا نقدر على أن نقوله)(34).

كما كان إلمام الشاعر بجميع الأغراض مثار أعجاب النقاد ومقياس الشاعرية عندهم، فقد روى حماد عن أبيه زبرك بن هبيرة قال: (كان جرير ميدان الشعر من لم يجر فيه لم يرو شيئا")(35).

وكذلك علل أبو عبيدة ــ لمن قدم جريرا فقال: يحتج من قدم جريرا بأنه كان أكثرهم فنون شعر...

ولعل تشبه الفرزدق بزهير والأخطل بالنابغة، وجرير بالأعشى أكبر دليل على سطوة الفن الجاهلي على هؤلاء النقاد وبعبارة موجزة نقول: إن مقياس جودة الشعر عند هذا التيار التقليدي في النقد العربي يتمثل في مدى تحقيق المطابقة بين شعر عصرهم وشعراء العصر الجاهلي.

الهوامش:

(1) ــ سورة الشعراء الآيات: 224، 225، 226، 227

(2) ــ الحسن لبن رشيق القيراواني ــ العمدة في صناعة الشعر ونقده ــ تحقيق وشرح مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، ص20

(3) ــ المصدر نفسه ص 20.

(4) ــ محمد بن سلام الجمحي ــ طبقات الشعراء ــ إعداد اللجنة الجامعية لنشر التراث العربي دار النهضة العربية، بيروت 1969، ص25.

(5) ــ ابن رشيق العمدة ص25

(6) ــ عبد الله بن مسلم ابن قتيبة ــ الشعر والشعراء ج1، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر 1966، ص133

(7) ــ أبو الفرج الأصفهاني ــ الأغاني ــ ج 1، تحقيق لجنة من الأدباء ــ دار الثقافة ــ بيروت، ص86.

(8) ــ المصدر نفسه ص86

(9) ــ المصدر نفسه ص83.

(10) ــ المصدر نفسه ص 81

(11) ــ المصدر نفسه ص 113 ــ 114

(12) ــ محمد بن عمران بن موسى المرزباني ــ الموشح ــ تحقيق: محمد شاكر مطبعة الدني القاهرة ط2، ص 257 259 ــ 260

(13) ــ بدوي طبانة ــ دراسات في نقد الأدب العربي ــ دار الثقافة ــ بيروت ط6 ــ ص 113

(14) ــ البهبيتي: تاريخ الشعر العربي حتى ق 3هـ، ص178.

(15) ــ عائشة عبد الرحمان، قيم جديدة للأدب العربي، نشر دار المعرفة القاهرة 1961، ص 97

* ــ هو ثاني الخلفاء في دولة آل مروان وخامس الخلفاء الأمويين، نشأ منذ مولده نشأة إسلامية محضة، وأحب الثقافة العربية من صغره، كما يدل على ذلك ما بلغه من مستوى رفيع في البلاغة ومعرفة الآداب العربية.

(16) ــ الموشح، ص 231.

(17) — الأغاني، ج6 ص88.

(18) — الموشح، ص 231،232.

(19) — المصدر نفسه، ص236.

(20) — الأغاني، ج4 ص 307، 308.

(21) — الشعر والشعراء، ص412.

(22) — الموشح، ص 233.

(23) — المصدر نفسه، ص 249.

(24) — المصدر نفسه، ص273.

(25) — الأغاني، ج8، ص 51، 52.

(26) — المصدر نفسه، ج8، ص33.

(27) — المصدر نفسه، ج21، ص425.

(28)— الموشح، ص 274.

(29) — الأغاني، ج21، ص311.

(30) — المصدر نفسه، ج19، ص34،35.

(31) — الموشح، ص331.

(32) — (الشعر والشعراء، ج1، ص152).

(33) — المصدر نفسه، ج2، ص654.

(34) — الأغاني، ج19، ص34،35.

(35) — المصدر نفسه، ج19، ص 34،35.